إلى الباكين على فرنسا أيضاً

بين أبراج العاج وأكواخ الطين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أننظر للحياة من أفق بعيد نظرة سكان الأبراج العاجية من الفلاسفة والصوفيين والعلماء المتنهين الراصدين للحياة من بعد، والذين هم في راحة بعالمهم الرحب الذي فيه لكل خطأ تصحيح ولكل إثم غفران ... وحينئذ فلا علينا إن سقط وطن أو أهينت عقيدة أو هيض جناح قوم أو هضم حق؛ فإن هذه ظواهر أبدية للحرب بين الخير والشر، وهذه هي شئون الدنيا وسير دولابها: «فالكلاب على البقر» والذئاب على الغنم...؟

أم ننظر للحياة من قرب نظرة سكان الأكواخ من العبيد والمساكين والمضطهدين الذين يعيشون بغيظ المحروم، وحقد المغصوب، وشعور الذي يجد الحياة مباحة لكل نفس دخلت رحابها، ولكن يد الظلم هي التي قيدتها وضيقتها ووزعتها بموازين مختلة ومعايير قاسطة ... فلسنا بعد هذه النظرة بمحتفلين لشيء من دنيا الظالمين المترفين، ولا بباكين عليها حين تتحطم بعلومها وآدابها وفنونها وتهاويلها وتزاويقها: «فإذا مت ظمآناً فلا نزل القطر»، «وعليّ وعلى أعدائي يا رب»؟

إن الأبراج من طبيعتها العلو، والعلو من طبيعته كشف ما حوله في محيط أوسع، وهو دائماً يجعل الأشياء الأرضية صغيرة حساً ومعنى. ومن طبيعته أيضاً البرودة والتجمد ... ولكن الأكواخ من طبيعتها الالتصاق بقرار الأرض والإحساس بحرارة معترك الحياة فيها، والاختلاط والانبهام والتداخل بين مشاهدها؛ فلا تميز فيها بين كل حق وكل باطل، وكل بر وكل إثم، وخصوصاً فيما يتصل بالعداوات والحزازات

أما والله لو كان الذين يبكون على فرنسا من أمة غير العرب الذين ذاقوا من كيد فرنسا في مختلف بقاعهم وبخاصة شمال أفريقية، لكان لهم بعض العذر في أن ينظروا لحياة قوميتهم وحياة أعدائها نظرة ساكني الأبراج العاجية الذين لديهم لكل إثم غفران، وعندهم القدرة على رحمة أعدائهم ومباركة لاعنيهم ... ولكن هؤلاء الباكين من أمة يضرها ويخونها أن ينظر فريق من أبنائها في غير الأفق الطبيعي الذي يليق بأمثالهم. يضرها أن ينظروا نظرة الباردين الذين ذهبت منهم «الوحشية» التي لا بد منها لكل إنسان يحرص على حقه في الحياة الكريمة التي تحفظه حراً لا يستعبد روحه وإن استعبد جسمه

إذاً فلننظر للحياة نظرة المدركين لوضعهم في الحياة، المحرومين من الحرية واجتماع الشمل، بل فلننظر للحياة نظرة المدركين لوضعهم في عين فرنسا نفسها؛ فهي تنظر إلينا كأعداء ...

وإن هذا الإدراك يدعونا دائماً إلى الكفاح لاستكمال سيادتنا ورفع النير الثقيل عن عاتق قوميتنا

ولنحذر من الإسراف في شهوات العقل والتمتع بالترف العقلي والبدني الذي هو لدى أعدائنا حتى لا يصيبنا التخدر والذهول عن وضعيتنا الراهنة، وإن للعقل لشهوات تخدر الروح وتقعد بها عن الكفاح للحرية كشهوات البطن والفرج سواء بسواء!

هي في ميزان الأخلاق كالرشوة بالدينار والمرأة والكأس. فكل من خدرته دنيا الغاصبين لحقوق قوميته أو عقيدته فنسي وضعه في أعينهم، ومد عينه إلى ما عندهم من زينة الحياة وأحبهم من أجلها، ونسي مرارة العداوة، ولم يقف في صفوف المألومين من قومه، فهو لا شك مرتش قبض رشوته من شهوات عقله ونفسه

إننا الآن نشاهد أمماً حرة عالمة مثقفة تحطم حياة أمم أخرى عالمة مثقفة حرة مثلها في سبيل إرضاء ما تعتقده كرامتها وكمال وجودها، ولا تبالي في هذا التحطيم بروح تلك الأمة المحطومة ولا مواريث ثقافتها ولا متاحفها التي تبين عن «روحها الحلوة» والحاطم والمحطوم من أرق شعوب الأرض وبينهم رحم في التاريخ والجنس والعقيدة ... ومع ذلك لا يفرقون في حربهم بين السياسة والفضيلة؛ فكيف يطلب منا نحن المغيظين المحنقين المحرومين من كل شيء المنظور إلينا كأننا من أفق حيواني دنيء، أن نفرق بين أساليب أعدائنا الاستعمارية وبين روحهم الحلوة وثقافتهم الممتازة التي لم يقدموا لأبناء عقيدتنا وقوميتنا شيئاً منها إلا ما هو بمثابة السروج واللجم التي تمكنهم من ظهورهم؟!

بل أدهى من ذلك وأمر: يضع فلاسفتهم – وهم من سكان الأبراج العاجية التي توحي بسمو النظرة – الخطط لتحديد ما يقدم لأبناء قوميتنا من العلم وما يمنع عنهم: فهذا «غوستاف لوبون»

الفيلسوف الفرنسي الذي لم ير العرب مثله إلا قليلاً في دفاعه عنهم وبيانه لتاريخهم وفضائلهم ووقوفه على أسرار فكرهم وروحهم ؛ تراه في كتابه « روح التربية » يعقد فصلاً للبحث في تربية أبناء المستعمرات – ومنهم العرب الذين تحت حكم فرنسا – ينادي فيه بوجوب تحديد ما يقدم لهم من الثقافة بما لا يخرج عن نطاق التعليم الأولي ... !

فأنت تراه حين تدور مصلحة قومه ووطنه ينزل من برجه العاجي ، ويخلع ثوب الفيلسوف المنصف ، ويلبس ثوب المستعمر الظالم والوصي الحريص الذي لا يريد للقاصر بلوغ رشده أبداً ... وبهذا تلتقي نظرته بنظرات ساكني الأكواخ ورجال الشوارع وأرباب المال والأعمال وعبي استذلال الشعوب من الفرنسيين الذين يعيشون في نطاق المصلحة المادية والأنانية الشعبية ولا ينظرون لمبادئ ثورتهم التي ملأوا الخافقين دعاية لها

والأمة التي يريد « لوبون » تقييد عقولها هي التي أخرجت « ابن خلدون » أبا فلسفة التاريخ والاجتماع اللذين نبغ فيهما « غوستاف » ... فيا للعقوق !

وعلى هذا فلا ضير علي ولا جناح ولا ملام حين أطلب من الباكين لما نزل بفرنسا أن يبكوا عليها وحدهم بصوت خفيض لا يسمعه إخواننا العرب الباكون ليل نهار لما ينزل بهم من فرنسا ... وإلا كان هذا البكاء منا شماتة بالعرب أنفسهم أو تبجحاً يجرح شعورهم الذي يتألم منذ مائة وخمسين سنة غداة احتلت فرنسا ديارهم ولم تسمح لهم بحرية العلم الذي هو وطن الإنسانية جميعها

وهل من الشماتة يا صديقي نجيب أن أفرح لضعضعة سلطان غاشم جاثم على صدر بني ديني ودمي ، لا يسمح لهم أن يتنفسوا أنفاس الحرية ويتمتعوا بالعلم والثقافة والنتاج للعقلي الفرنسي الذي فتنك حتى أحببتهم ودافعت عنهم وبكيت لهم ؟ ! وإذا كانت هذه شماتة فكيف يكون الشعور بالوطنية ووحي الدم المتحد ؟ !

إن كانت هذه شماتة فأنا أول الشامتين ! وأنا بها إنسان موزون القوى صحيح الطبيعة ، لم تخدرني عن واجباتي صوفية صناعية ومجاملة بلهاء في تغطية مشاعري نحو بني ديني ودمي .

وأنا بها أيضاً بريء من طفولة النظرة إلى ما عند أعداء قومي وديني ، ومن الانخداع فيهم ، ومن نسيان أول حق يجب أن يراعى ، وهو حق الحياة والحرية والعلم

ونحن إذا طاوعنا أنفسنا في الافتتان بما عند الأوربيين من الفن والأدب خيره وشره ، وألقينا إليهم السلم ، ونسينا أنهم غصبوا حقنا الأول في الوجود ، فأولى بنا أن نترك لهم أوطاننا ، وننحاز بحضارتنا الروحية التي من شأنها أن تعدل ماديتهم ، وتكسر من شرتها وحدتها ، إلى الصحاري لننجو بصحة العقائد في الحياة وربها ، والقيمة السامية للانسانية فيها

نعم ، ذلك أولى من الفناء فيهم والإعجاب بهم إعجاباً يحملنا على نسيان نظرتهم إلينا ، وعلى اغتفار جناياتهم على أرواحنا وعلى كرامتنا

إنهم يا نجيب هم الذين صيرونا كما ترى وكما تنعى « نعيش عليهم كما تعيش الطفيليات عبئاً على غيرها »

وإنك لتذكر أننا سبقنا اليابان في نهضتها المضارعة لنهضتهم الآن ، وذلك بقيادة محمد علي ذي العمامة الصجراء والجبة القوراء ... ولكنهم هم الذين اشتركوا في تحطيم نهضتنا لنعيش عالة عليهم ... فتنتفخ جيوبهم وتمتلئ ديارهم بألوان الترف والنعيم

إنهم جعلوا همهم أن نكون سيئي الظن بأنفسنا ، حتى أوشكنا أن نصدق دعاويهم فينا أننا أحط منهم بحيث لا يمكن أن نرق إليهم . والله الذي خلق الناس أنواعاً يشهد ويشهد معه أولو العلم ، أن جوهر ابن آدم واحد ولكنها التربية والعلم هما (الحجران السحريان) اللذان يرفعانه إلى أعلى عليين أو يخفضانه إلى أسفل سافلين ...

* * *

حين تكفر فرنسا بأغلى مواريث حضارتها ، وهي مبادئ ثورتها ، وتعذب الإنسان وهي التي زعمت وزعم لها أبواقها أنها معلنة حقوق الإنسان ووطن الأحرار ، فكيف تطلب منا يا نجيب أن نصدق فلسفاتها الفردية وأن نعشق روحها الحلوة التي تبين عنها فنونها ؟ ! إنها كفرت بفلسفتها الإجماعية التي لم ترق لها مداداً على ورق بل أراقت لها دماً غزيراً وأزهقت في سبيلها أرواحاً لا عدد لها ، وحطمت من أجلها ملكاً كبيراً في ثورة جنونية ... فكيف تريدوننا أن نبكي على شيء من ميراثها بعد ذلك ولو كان أصفى ما أنتجه العقل وأروع ما أخرجه الفن ، ما دامت الفلسفة الفردية والإجماعية لم تؤثر في نفوس من يحكمون الناس باسمها ؟

إذا كفر رسول برسالته فهو دجال مشعوذ لا يؤمن به إلا الحمقى والمغفلون وتابعو كل ناعق ممن تنزلت عقليتهم عن مقام أهل الفكر الذين وكل الله إليهم إدراك وجهة الحياة وإقامة الأحكام بالقسط على الناس ...

إذا كان حقاً ما تقول من أن أبناء جميع المستعمرات يعاملون

فى فرنسا على قدم المساواة مع الفرنسيين ... فهل نطلب من أبناء المستعمرات جميعاً أن يرحلوا عن أوطانهم ويسكنوا فرنسا ليحظوا بالحرية والكرامة والعلم والوقوف على قدم المساواة مع الفرنسيين ؟

كلا ! لن يبيع عرب الجزائر وتونس ومراكش وطنهم بوطن آخر ولو كان فرنسا إلا إذا باع الفرنسيون الآن وطنهم للألمان لأنهم احتلوه بالقوة والطغيان ، وإلا إذا ذهبوا أوزاعاً وأخلاطاً ليسكنوا ألمانيا ويندمجوا فيها وينزلوا عن جنسيتهم ليحظوا بشرف المساواة مع السادة ...

ويح عقول مثقفينا ! بل ويلها ! إنها فى ضلال وخديعة ما يغنى لها أسف ذوى القلوب البسيطة التى تصدر عن سلامة الفطرة وبراءة الفكرة ...

وبعد هذا ، أنحن الذين « لم يقوموا بهذه الحركة الشامتة وهم متبينون ما يجرى فى نفوسهم ، وأن بعضهم لم يكتب ما كتب مخلصاً لفكرة أو مؤمناً بحقيقة » ؟

* * *

أنا ما « شهدت متاحف فرنسا ولا تلك اللوحات التى تصور بألوانها وظلالها جمال النفس ولا حلاوة الروح » ، ولم أحبب كما تريدنى يا نجيب هذه الروح الممتازة ... إذ لا يمكن أن أحب جلادى قوى ومعطلى روحهم وقواهم وذكائهم الممتاز الذى حفظ شعلة الثقافة والعلم وغاها حتى أسلمها لهذه الأيدى العاقة الجاهلة بسير التاريخ وتقلباته بالدولات والأمم ... فلا أفتن بالأصباغ والألوان الزاهية وأنسى الحقائق القائمة المتممة ...

ولم أشهد كذلك تلك اللوحات التى فى « قاعة الوقائع » فى فرساى ، إذ ينبغى أن نكون فى شغل عنها برؤية الوقائع السود الداعمة والمعارك الظاهرة والخفية التى تشنها فرنسا على قومك فى الشرق والغرب : فى سوريا ومصر وشمال إفريقية ...

لو سقطت فرنسا تحت أقدام قوى لخشعت فى حضرتها « فما أنبل أن تخشع فى حضرة عدوك يوم يسقط صريعاً تحت قدميك ! » كما قلت يا نجيب ... ولكن فرنسا خطمت وهى لا تزال جاثمة على صدر قوى ... وقد فرحت لصرعها أملاً فى أن يزحزها قوى عن صدورهم ثم ينهضوا ليؤدوا لها تحية الخشوع التى تراها الأخلاق من النبل

أما الآن وفرنسا لا تزال سجانة فى ديار العرب ، وإن كانت سجينة فى ديارها فكيف تطلب منى أن أبكى عليها وهى لا تزال ثقيلة الوطأة تقل جثث الأموات ... ؟ !

أولى بسكان الأبراج العاجية من كتاب العرب أن ينزلوا إلى منطق أهل الأكواخ المكتوين بنار الحياة حين يتحدثون عن قوميتهم وعقيدتهم كما يفعل أمثالهم فى جميع الأمم قويها وضعيفها ، وأن يتكلموا فى هذه الحقبة من تاريخ الأمة العربية بلسان بنى قومهم المحكومين المحرومين فى أفريقية وآسيا ، الذين لم يزوروا باريس أو غيرها ولم يفتنوا بدنياها ... فإنهم لو تكلموا بلسان غير هذا ، لكذبتهم الملايين التى استهلكت فرنسا قواها وتركتها تدخل إلى الحياة وتخرج منها ، وهى على جهل وفقر وألم وسخط .

وطبيعى أن الإنسان الإفريقى والآسيوى المحكوم بفرنسا هو أولى الناس بالحكم على النفس الفرنسية ، لأنه هو الذى احتك بها وخبرها خبرة عملية فى مجال وصايتها عليه ، وعرف كذب فلسفاتها وفتونها وإفلاسها فى تهذيب أفضل عمل للانسان : وهو الرياسة والسياسة

ولن يبالى هذا الإنسان المحكوم أكانت فرنسا حقيقة بلاد الفردوس المفقود فى المساواة والعدالة والفن والعلم كما أراد أن يصورها الباكون عليها ؟ أم كانت بناء قائماً على براكين اجتماعية وأنانية وتفسخ عائلى وتدليس اقتصادى كما يصورها عارفوها الذين لا يفتنون بالظواهر والقشور ، وكما صورتها أحداثها الأخيرة التى رأينا فيها أكبر قائدين فيها كانا يقولان للفرنسيين قبل الهزيمة : « قاتلوا من أجل روح فرنسا ! » ينقلبان بين عشية وضحاها بوقين يصبان اللعنات كل يوم على روح فرنسا ... ويديران دفة الحكم تحت وصاية عدو فرنسا الأبدى إدارة ينظران فيها إلى اتجاهات أنظاره ومواقع رضاه . ولو انتصر «فيجان» و «بتان» على الألمان لمتنا وهتف معهم الناس « المجد لروح فرنسا ... »

فى جميع الممالك التى أخضعتها ألمانيا من ابتداء الحرب ، لم يسر الناس فى موكب ألمانيا بمثل ما سار الفرنسيون ، بل جميعهم قالوا لألمانيا : دونك فاحكمينا باسمك كما تشائين ، ولكننا لن نحكم أنفسنا باسمك وبأسلوبك فى الحكم

تلك ظاهرة تبين لنا أن فرنسا لم تكن مؤمنة بروحها ، ولم تكن ممتلئة به . بل لا نبالغ إذا قلنا : إنها ليس لها روح يسيطر على أفرادها ويجعلهم يمثلون مثلاً أعلى يلمس فى أغلبيتهم كما يلمس المثل الأعلى الإنجليزى فى أغلب الإنجليز ...

وخير ما نختتم به هذا الحديث هو تلك النبذة التحليلية التى نشرها الأستاذ الصاوى صاحب « ما قل ودل » وصديق فرنسا المشهور قال : « وإذا عدنا إلى الفرنسيين ـ الذين ألقوا سلاحهم ـ